الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ

محمد سيد حاج

رحمه الله

شرح كتاب مدارج السالكين · الحلقة 11

منزلة التذكر

للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله

نص مفرَّغ من التسجيل وحُرِّر للقراءة: صُحِّحت فيه الهمزات والترقيم والآيات، وحُذفت مواضع لم يتبيّن فيها الكلام. المرجع هو التسجيل الصوتي.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. في هذا الدرس يحاول أن يربط المصنف ابن القيم رحمه الله بين التوبة وإصلاح ما فسد، وبين الإنابة، لأنه يعتبر الإنابة درب من دروب إصلاح الماضي، الإنابة في الحاضر عن سيئات فعلها العبد في أيام عصيانه قبل أن يتب، فلذلك يتساءل: كيف يصلح العبد ما كان أفسده قبل التوبة؟ بعد أن تاب، بعد أن تاب أصلح جوارحه، ولكنه يحتاج إلى إصلاح باطنه وقلبه لتستقيم التوبة، وليستطيع أن يترقى وأن يسير في مدارج الطاعة لله تعالى، فقال: يصبح ذلك أولًا بالخروج عن التبعات، التبعات هذه تحتاج إلى أداء، إما حقوق معلقة، لا تصح التوبة إلا بها، وإما تبعات تذكرك بالماضي، فيصيبك درب من ذنوب الحنين كذلك.

فمن كان من الغناء والمستمعين إليه، فإذا تاب، حتى يقطع الصلة بالماضي عليه أن يقطع الصلة بذلك المجتمع الذي كان فيه المسمى بمجتمع الفن، الصلة بمجتمع الفن، وإلا لو مثلًا أنه يضع أشرطة الفنانين المحببين عنده على الرف في الدولاب، كلما فتح الدولاب وقرأ أي حاجة من الحاجات.

طبعًا يا إخواننا، إشكال الكثير من الناس في التعامل مع العصيان، التعامل مع المعصية بشيء من الاستهتار، والإشكال في هذه المسألة الاستهتار بأنه يتصور أنه لو من السهل أن يعيد قلبه كما كان قبل العصيان، وذلك صعب، حتى ولو تاب، يقول: أنا أجرب مرة أفعل هذه المعصية مرة وثم التوبة، ولكن هذه المرة تضربه في

بيداء الضلال بعيدًا، فتصبح المسافة بينه وبين ربه مسافة بعيدة جدًا. لذلك الخروج من التبعات، والتوجع على العثرات.

وأن يتوجع على العثرات، أن يتألم قلبه على أنه كل ما ذكر أيام الخوالي كان فيها عن الله بعيد كلما تألم قلبه وانصدع، ولذلك هذا لقوله تعالى في التوبة: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، تتقطع قلوبهم بالألم والحسرة، أنهم تجرأوا على عصيان أوامر الله، وركبوا المحارم التي منعها، يعني يحصل لهم شيء من التوجع على العثرات، ويتوجعون على عثرات إخوانهم، فإذا ما عصى عاصي بمثل ما كان عليه من قبل يتألم له، ولا يحتقروه، وهذه مسألة مهمة جدًا، العاصي الذي جرب المعصية إذا وجد شخص على معصيته لا يحتقره، لماذا؟ لأنه في يوم من الأيام كان مثله ولكنه يتوجع له، وهذا يعني أنه حصلت له نوع من أنواع الرقة تجاه العصاة، يعني إخوانا هذا مسلك حميد في الدعوة.

إخوانا ماذا تنقص الدعوة اليوم؟ الدعوة الموجودة الآن للإسلام، ينقصنا أمران: إخلاص وتخطيط، إخلاص الدعاة وصدقهم أقوى في التأثير، لكن الدعاة في الدعوة تأخذهم بالضوضاء، وتتخطف وتتلاعب بهم المناصب ويأخذهم الحسد فيما بينهم يتآكلون، دعاة الإسلام الآن في هذه البلاد هكذا، هذا الذي أراها، لا أعرف ما الذي ترونه أنتم؟ ولكنني الذي أرى أن الدعاة يحتاجون إلى إخلاص يؤثروا ويحتاجون إلى تخطيط لهذه الدعوة، ومن التخطيط التعامل مع المدعوين بعطف، إخوانا المجتمع في السودان يحتاج إلى عطف، من قدم له العطف واستمع إلى كلامه وتأثر به، وهذا مفقود عند الدعاة. الآن المناطق الطرفية في عمل كنسي وفي إنساني على قدم وساق، بينما يغفل وينسى الدعاة إلى الإسلام، الدعوة لا يصلح لها إلا صاحب قضية، ولذلك تجد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام من خلال سيرته ما جلس في المدينة يدير الدعوة، إنما تحرك بالدعوة في الميدان، إن لم ينزل القدوة وقدوات العلماء إلى الميدان، إلى ميدان الأمة، ستضيع الأمة. والآن الشباب يحتاج ويريد من يشكله، يحتاج إلى من يشكله، لا يعرف ماذا يفعل، يعني ما الذي سوف يكون عليه الشباب؟ التخطيط للدعوة.

كيف نخطط للدعوة؟ من خلال قراءة سليمة لاتجاهات المجتمع، الاجتماعية والفكرية، كيف نخطط للدعوة؟ من خلال أنماط السلوك الموجودة، لنشخص الداء ونحدد دواء ينفع المرحلة القادمة، من الذي فعل هذا؟ هل توجد مراكز معتمدة لأمر الدعوة؟ أم أن أمر الدعوة بعد النفط؟ وبعد الكباري وبعد الأسفلت وبعد البنزين وبعد كل هذه المسائل؟ الدعوة للإسلام بغض النظر عن الأحزاب والكيانات والجماعات والطوائف، الدعوة إلى الدين الحق، إلى الإسلام الصحيح، إلى هذا الإسلام الرائع الدعوة إليه.

فهو يتحدث عن التوجع على العثرات، ومن ذلك التوجع على عثرات الإخوان إذا ما أذنبوا، أنت تلتمس لهم عذر، تقول: أنا كنت في يوم من الأيام في حالة ضعف بشري ووقعت فيما وقع فيه، أتمنى لهذا بقلب صادق وتريده أن يترقى، كذلك كنت من قبل فمن الله عليك. هذا الشعور تجاه الآخرين، تجاه المجتمع المراد دعوته، هذا للدعاة، يبدو أنه من حسنات مدارج السالكين بأنه أشار إلى هذه القضية في أي موضع: إياك أن تحتقر عاصيًا لمجرد أنه عصى، ولكن يمكن أن تهجره لمصلحته، ويمكن أن تؤلفه لمصلحته، ويمكن أن تعطف عليه وتدعوه وترفق به أيضًا لمصلحته، أنت لا تريد مصلحة لنفسك ولا تريد انتقام.

ثم بعد ذلك يتحدث عن استدراك الفائتات، ليبدأ الإنسان بإصلاح ما كان عليه ليكون من المنيبين، بعد أن تكلمنا عن أركان الإنابة الأربعة، قلنا: أن يخرج من التبعات، وأن يتوجع على العثرات، وأن يستدرك الفائتات. الفائتات أن يعتبر نفسه في سباق مع الزمن، وهذا الشعور الإيماني العالي الذي يخالج المسلم والمؤمن بين الحين والحين، زاد كبير إلى الآخرة، بمعنى يا إخوان كيف نستدرك الفائتات؟ هذا أيضًا يحتاج إلى سؤال، وابن القيم لم يفصل في المسألة، ولكن الذي أفهمه في هذه المسألة كالآتي: يستدرك الفائتات بأن يحرص على الحسنات، ألا يزهد في الطاعة، يا إخوان في الناس يضعف إيمانهم ويضعف عطاءهم، أنه إذا فاتته حسنة لا يتألم، يقول: ساعوض غيرها، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، فاستدراك الفائتات بأن يحرص على الحسنات، وألا يزهد في الطاعات، أي طاعة حتى ولو قليلة، واعلم أنه رب طاعة لا تلقي لها بالًا تكون سببًا لنجاتك وأنت غافل عنها يوم القيامة بخلوها من آفات الرياء وغيره، ورب حسنة وأنت عظمتها استعددت لها ولكن فيها من آفات النفوس الرياء ما يجعلها بدون قيمة، فتذهب فتجد نفسك يوم القيامة في مكان عال بحسنة أنت لم تلق لها بالًا، أنت لا تعرف ما الذي يرضي الله؟ فأنت تحرص على إرضائه بكل سبيل ووسيلة ولا تفتر عن ذلك، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، فأنت تعبد الله وعبادتك لله مهما فيها من التقصير ما فيها، وفيها من الشوائب ما فيها، فلذلك مضطر أن تحرص على الطاعات، وأن لا تزهد في الحسنات، وأن تستكثر من ذلك، باعتبارك في سباق مع نفسك والزمن مع العمر، وفي سباق مع آخرين أنت تريد أن تسابقهم، ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، فتدرك الفائتات بهذا الشعور وبهذا الإحساس، أن لا يتقدم عليك أحد في الدنيا، أنت ترجو ذلك، وألا يتقدم عليك أحد في الآخرة ينبغي أن تسعى لذلك، يعني ما تقول: والله أنا بس أي حاجة تخارجني، ما ينفع، ينبغي أن تكون في هذا الاتجاه، أن تكون في هذا الاتجاه صاحب همة عالية.

أعطيك مثال عجيب، وخير المثال مثال النبي عليه الصلاة والسلام، الذي يتعامل مع العمر في سباق عجيب، يريد أن يغتنم كل لحظة من العمر، وكم من اللحظات والأوقات تضيع سدى فيما لا ينفع، وهذا سوف نتحدث عنه لأنه من المنازل، من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، منزلة الوقت، كيف يستثمر الصالح؟ أيامه القليلة فيملؤها بطاعات كثيرة، وهذا تحدي كبير جدًا بالنسبة لك. رسول الله عليه الصلاة والسلام تقام الصلاة في مسجده، ثم يقف في موضع الإمام ويصلي بأصحابه، ثم يقول: مكانكم، فيقف أصحابه، ثم يهرع إلى البيت، إلى الحجرة، يدخل الحجرة، وأصحابه وقوف، وعندهم من الأدب ما عندهم، الصحابة دول واقفين ولا سألوا، ثم رجع وصلى، وبعد الصلاة التفت إلى أصحابه وقال: لعلكم فزعتم، إن في بيتي ستة دراهم، فخشيت أن أموت وهي عندي، فأوصيت عائشة بإنفاقها، ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده، قال: امشي أقول له، يلا شو؟ خاف في الصلاة دي يموت في الصلاة بيموت، وإذا مات في الصلاة بيسألوا له الست إبراهيم دي، لكن مشى كلمني، قال لهم: انفقوها، بعد كان مات بيموت مطمئن، حتى كان ما انفقوه أكلوها، وده ممكن يحصل من أمهات المؤمنين، لكن الله ما بيسأله بعدها، أبرأ ذمته.

الإحساس العميق في التعامل مع الزمن ومع الحسنة والحرص عليها، لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في بدر يتعقب كل ثلاثة بعير، كان هو ومرثد ابن أبي مرثد الغنوي وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهم يتعقبون بعيرًا، فكان واحد يمشي واثنان يركبان، فينزل أحدهما ويركب الذي كان يمشي، فاتفق مرثد وعلي أن يتعقب البعير هما وأن يظل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينزل ثابتا، فأبى وقال: ما أنتما بأقوى مني على المشي وما أنتما بأحرص مني على الأجر، وفي البخاري لما ضرب إصبعه وسال دمه نظر إلى الإصبع وقال: هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت؟

وإن الدافع لتحصيل الحسنات هو تعظيم الله، لأنك تريد التقرب منه، ومعرفتك للآخرة، لأن التعامل يوم القيامة بذات العملة، الحسنة والسيئة، الدولار والذهب وأسواق النفط ومؤشرات الأسواق العالمية فإن ذلك مكانه في دنياك هنا، لذلك هذا الإحساس العميق بالتعامل مع الحسنة إحساس راقي جدًا. أبو موسى الأشعري رضي الله عنه تقدمت سنه وشابت رأسه وضعف بدنه ونحل جسمه فصار يكثر من الطاعات ويزيد في العبادات أكثر مما كان يفعل شابًا، لما سألوه قال: إن الخيل إذا أرسلت في السباق وقاربت رأس منتهاها النهاية أفرغت كل ما عندها، وقد قاربت رأس منتهاي، يعتبر نفسه في سباق عجيب.

ولذلك لابد من استدراك شنو؟ الفائتات، بمعرفة قيمة العمر، أيها الأحبة، العمر أغلى من أن يضيع حتى ولو كان جائزا في مباراة الأمم الأوروبية، العمر أغلى من ألمانيا وفرنسا، عمرك، بل لو أني صادق أقول عمرك أغلى من العالم كله، لأنك إن فقدت لا تستفيد من العالم ولا تنتفع بشيء، عمرك أعلى ما تملك، أين يضيع هذا العمر؟ يا إخوان والله العمر دا غالي جدًا، والله أنا أشعر بذلك، يا إخوانا إذا كنت أنت تحتاج إلى كل دقيقة حتى الذي تستعين به على الطاعة من المباح لا يكون في إطار ساعات طوال تجلسها فيما لا ينفع. هب أن فرنسا هي التي فازت بالكأس، ما الذي تستفيده أنت؟ فالعمر أغلى وأثمن من أن يضيع هكذا سدى، إلا إذا كنت ترى أن عمرك رخيص.

أما المؤمن، والدليل أنه لما باعها لم يبعها إلا لله، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، أما صاحب العمر الرخيص ده ما عندنا موضوع، تعال نتونس، كيف ما عندك موضوع؟ أنت مؤمن، ما عندك موضوع كيف؟ عندك باب من الحسنات تريد أن تسابق فيه، فلابد أن تحرص على كل حسنة من الحسنات، وأن لا تضيع وأن لا تهدر كل دقيقة من عمرك حتى الذي تفعله من المباح، تستعين بذلك على شنو؟ على مرضات الله، وعلى طاعة الله، لتستجم، ولأن النفس تحتاج إلى شيء من الترويض، من المباح من أجل أن تتقدم إلى الأمام، ولكن ليس هذا هو الأصل في حياة المؤمن، الأصل أنه جاد، والأصل أنه صادق في توجهاته وحركته، وأحيانًا إذا فترت القلوب وأنها تكل كما تكل شنو؟ الأبدان، فيستعان بشيء من اللهو والنزهة والفسحة، وكل ذلك فيما يستفيد وينتفع به المؤمن، لذلك أقول لك عمرك، عمرك وحياتك حياة، العمر ده أهم شيء.

طيب، ناقش بعد ذلك ابن القيم قضية وهي الخلاص من لذة الذنب، بالإنابة تمامًا، لأنه التخلص من لذة الذنب، يا إخواننا الذنب عنده لذة، وهذا لا ينكر وهذه اللذة لا ينكرها عاقل، لكن ابن القيم يناقش قضية حساسة، يقول: سبحان الله شيء عجيب، هذا من التأمل، أنا ما أدري، هل هذا الكلام صحيح؟ قال: بعض الناس يرتكب الذنب، المتعة في ذنب، وهذا موجود، بل إذا كانا متزوجين قد يجد كل واحد منهما في الحرام ما لا يجدوه معًا في الحلال، يعني امرأة متزوجة إذا زنت قد تجد مع عشيقها غير الشرعي متعة لا تجد ذلك مع زوجها، ربما أنا لما شفتك وأنا مما سمعت صوتك بقيت ما عارف آكل ولا أشرب، وأنا اتجننت، في المعصية والذنب متعة، قال بيشرب الخمر، لما يشرب الخمر يشرب، مبسوط كده ومنتشي وشايف الناس عشرة على عشرة، متعة، لكن سبحان الله المعاصي تذهب اللذات وتبقى الحسرات. فيقول رحمه الله: إنه إذا أذنب واستمتع ثم أدمن الذنب لا يجد في الذنب بعد ذلك متعة، ولكن الغريب أنه لا يستلذ ولا يستطيع أن يرجع،

هو لا يستطيع أن يلجم نفسه، يحصل الاسترسال مع المعصية ومع الذنب، فالخلاص مهمة، ولكن ابن القيم ناقش مسألة هنا، قال: أيهما أكمل؟ قطع القلب عن لذة الذنب الماضي بالكلية، ولا بيتذكر الذنب ده وشغال في عبادته، ام من يطرأ عليه الذنب ولذته فيدافع ويجاهد ويتتعتع ويتعب؟ أيهما أجل؟ الذي جاهد نفسه وقد أتته، أم الذي قطع العلاقة بالذنب تمامًا؟ فاستقر قلبه واطمأن فؤاده إلى الطاعة فلم يرجع إلى الوراء ولم يلتفت قلبه، أيهما أجل؟ ناقش ابن القيم هذه المسألة. طيب، رجح ابن القيم رحمه الله أن الأجل من اطمئن قلبه، لسبب بسيط جدًا، قال: إلى أي درجة يريد أن يصل بجهد نفسه؟ إلى درجة اطمأن، صح؟ إذا هذا درجته أكمل، ولكن لا تجد من اطمئن قلبه يجاهد ليرجع إلى حال، هذا حق الذي يجاهد نفسه هو الذي يريد أن يصل إلى درجة مطمئنة القلب وعدم التفافه إلى الذنب، وهذا يعني أنه كمال، الثاني المرجح الثاني الذي جاهد نفسه مضطربة، أما الذي لم يلتفت فقد صار في الحقيقة والشرع والطاعة راسخًا، ده مطمئن جدًا.

وللنفس ثلاث أحوال: الحالة الأولى للنفس أن يأمر الشيطان النفس بالمعصية وأن يجملها، والحالة الثانية بعد الذنب أن يندم وأن يتلوم، والحالة الثالث أن يطمئن إلى الطاعات فيمضي في طريقه لا يلتفت إلى ماضي، وقد صار من الراسخين أقدامهم في مقامات الإيمان، فالراسخ في مقامات الإيمان هو الأكمل، وإن كان ابن القيم يقرر شيء مهم وهو أن يجد من المشقة والتعب ما لا يجده الراسخ، لكن الراسخ نفسه قد مر بهذه المرحلة حتى صار راسخًا، ثم قد تكون العبادة شاقة، ولكن لا تكون هي الأفضل، وهذه القاعدة مهمة في الطاعات بالمناسبة، ليست كل عبادة شاقة هي الأكمل والأتم. ضرب مثال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال، قال: إيمان بالله، قالوا: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، إن مشقة الجهاد في سبيل الله ليست كمشقة الإيمان، ولكن بالرغم من أن الجهاد أشق من الإيمان ولكنه بعد الإيمان، هذا واضح.

المسألة الثانية: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعد صلاة الفجر، صلى بالناس الفجر وصلى زوجه ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها وتركها في البيت وخرج لقضاء بعض شؤونهم، فرجع قبيل الظهر فوجدها في مكانها جالسة لم تتحول، إنما هي في ذكر مع الله، فقال لها: أهذه جلسة؟ جلستك التي تركتك عليها؟ قالت: بلى رسول الله، قال: لقد قلت بعدك أربع كلمات تعدل ما قلته كله. وهذا يدل على فضيلة الفقه، عبادة الله بعلم، لقد قلت: سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ثلاث مرات، تعدل ما قلت من الصباح حتى الظهر، وفعلًا يعني حتكون سبحة كم مرة؟ عدد خلق الله؟ عدد ما خلق، هو

في دقائق سبح بعدد خلق الله، سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. الفقه في الدين مهم، فلذلك الفقه يجعل العبد يحصل أعلى الدرجات من الحسنات والطاعات بدون مشقة وتعب، ولميمونة حظها ونصيبها من المكث والجلوس والذكر لله تعالى.

طيب، بعد هذه المسألة الخلاص من الذنب، يقول: وأن يترك الاستهانة بأهل الغفلة، شيء عجيب! إخوانا في ناس غافلين والشباب ضايع، بينك وبين نفسك يا الله تهديهم، والى الجامع تبصره يصلوا في المسجد، لا تستهين بأهل الغفلة، يقول: ودي قاعدة تربوية مهمة جدًا، قال: الفقه أن تمقت الناس في ذات الله، لا تجعل الناس يصدونك عن طاعة الله، الطاعة ترضي الله، لكن يا أخي أصحابي دول حيضحكوا مني، هؤلاء قطعوك عن الله، عشان كده في معاملتك لله لا تجعل الخلق بينك وبين الله، ده معناه أن تمقت الناس اشنو؟ في ذات الله، قال: ثم ترجع إلى نفسك فتمقت نفسك، بعد ما تمقت الناس في ذات الله تمقت نفسك؟ تمقتها كيف؟ أن تكون أشد مقتًا لنفسك بأن تنظر إلى آفاتك وعيوبك، وكل واحد منا أعلم بنفسه من الآخرين. أن أبا سفيان رجل شنو؟ يحب الفخر فيجعل له شيء، فقال: من دخل دار أبي سفيان كان آمنًا، في ناس عندهم الفزعة دي، كويس؟ بتعامله على حسب فهمه، لكن هؤلاء ألا يقطعوك عن الله.

أهم شيء إذا عاملت الله لا تلتفت إلى خلق الله أبدًا، لأنك تعامل من هو أجل منه، من أراد يعامل الرئيس في القصر الجمهوري ثم يلتفت إلى الغفير الموجود في القصر الجمهوري؟ هو في حضرة الرئيس قاعد مع الرئيس، يا أخي أنت في حضرة الله وتعامل الله، لا تجعل خلق الله بينك وبين الله، وإلا فسد قلبك وضاع عملك بالرياء والسمعة، ثم ارجع إلى نفسك وكن أشد مقتًا لشنو؟ لنفسك بمعرفة عيوبك، ثم بالتأمل في أنك في حق الله مقصر مهما فعلت من الطاعات وأديت من العبادات، هذا دافع قوي جدًا إلى أن لا تستهين بأهل الغفلة.

شوف يا إخواننا أكلمكم، تجد أحاديث عجيبة جدًا في السنن، مثلًا يقول عليه الصلاة والسلام: كانت هنالك شجرة من شوك في طريق المسلمين تؤذي الناس، قال عليه الصلاة والسلام: فأزاحها عن طريق رجل فدخل الجنة. لكن ما قام في القلب من مقامات الإيمان وشواهد اليقين، والانكسار في تلك اللحظة وتعبد الله بأمر يستهين به الناس، جعل هذه العبادة أرفع لدرجات العبد. في البخاري: بغي من بني إسرائيل تمشي في الصحراء كلبا عطشا فنزعت موقها النعل وملأته ماء ثم دنته للكلب بيدها حتى شرب، فلقيت الله فشكر لها ذلك وغفر لها وأدخل لها الجنة، الزنا ده عظيم، جرم عظيم لا يغفره شيء، لكن الناس يستهينون بهذه

الطاعة فهي أتتها بإقبال شديد فغفر الله لها، ليست الكلب ولكن ما قام بقلبها من تعظيمها لله في تلك اللحظة، ومن إخلاص النية، ليه؟ لأنه محل احتقار، وفي الصحراء حيث لا يراها أحد، هذا يدل على أنها فعلت هذا، لم تفعله ولا سمعة، أي سمعة في سقيا كلب في صحراء منقطعة؟ فلذلك هذه المسألة مسألة مهمة.

طيب، العبد في مرحلة الإنابة يحتاج إلى شيء مهم جدًا، أنه إذا فعل طاعة في مرحلة عليه أن يتذكر أن الله أعانه على هذه الطاعة، استشعار العبد توفيق الله ومدد الله وعون الله للعبد، أهم شيء في الإنابة، أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وشنو؟ وحسن عبادتك، أنت عبدته وحرم غيرك، توفيقا من عند الله تعالى، ولذلك الناس يوفق للطاعة، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

طيب، انتقل ابن القيم انتقال عجيب من منزلة الإنابة إلى منزلة لا تشرح إلا مع الإنابة، اللي هي شنو؟ منزلة التذكر، وتعريف التذكر كما عرفه ابن القيم: حضور صورة المذكور العلمية في قلب المتذكر، يعني أنت بتتصور الشيء مجرد تصور، قبل ما تقول أي حاجة، أما الذكر هو شنو؟ أن تقول ما تذكرته. طيب، ما العلاقة بين التذكر والإنابة؟ يقول تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، لكن ما أتى إلى الله بجوارحه فقط، أتى إلى الله أيضًا بشنو؟ بقلبه.

طيب، والتذكر معه شيء قليل منه هو التفكر، التفكر معه شنو؟ التفكر، عشان كذا أيهما أسبق؟ التفكر قبل التذكر والتذكر قبل التفكر؟ التفكر في الأول بيتفكر، وبعد ذلك تصيب غفلة، وتفكره يسعى إلى استحضاره في قلبه، هذا يسمى شنو؟ التذكر، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾. طيب، الإنسان بيستحضر في دينه، حضور صورة المذكور العلمية في القلب، الجنة، أنت بتفكر في آخرة، تفكر، عشان تقول الجنة وتتكلم عن تفاصيل، الجنة كده والجنة كده، هذا يعتبر شنو؟ يعتبر تذكر.

طيب، إذا الإنابة من الأشياء التي توجدها، الأشياء اللي بتجيب الإنابة حاجتين: التبصر والتذكر، ﴿تَبْصِرَةً﴾ وشنو؟ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾، التبصر بكون بالآلة الحسية، كيف؟ يتأمل في الخلق، وهذا أصلًا الآية دي في سورة قاف في معرض قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، وما لها من فروج، يعني ثقوب، ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، فاستعمال آلة البصر في استحضار عظمة الله تبصر، ثم الاستفادة من ذلك بالإعراض عما سوى الله تذكر، وبذلك تحصل الإنابة.

وهذا معنى من المعاني اللطيفة، يعني بالتبصر والتذكر يزول الإعراض وجفاء القلب. ابن القيم لطيف جدًا، لكني لم أطلب المرجع الذي قاله فيه، إما في الفوائد وإما في روضة المحبين، قال: إن للقلب شعثًا، والله لا ينظر إلى صور إلى أجسامكم ولكن إلى قلوبكم، ما شاء الله نظيف، وآخر ريحة وآخر صابون، وما شاء الله نضيف جدًا، لكنه أشعث القلب، عشان كده قال: إن للقلوب شعثًا لا يلمه إلا الإقبال على الله، في القلوب وحشة لا تزيلها إلا أنس بالله، وإن في القلوب حزنًا لا يذهبه إلا سرور بمعرفة الله ومعاملته، وإن في القلب قلق لا يسكنه إلا فرار إلى الله، إن في القلب فاقة لا يسدها إلا اللجوء إلى الله والإخلاص له ومحبته، وإن في القلب حسرة لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه إلى يوم لقائه.

هذا الكلام لطيف جدًا بالمناسبة. طيب، القلب حتى في آياته فيها يعني حديث عن القلب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، ولكن السؤال الكبير أنه لم يكن له قلب مات، لكن القلب الحسي موجود، يدفع الدماء، والشرايين والأوردة، والبطين والأذين، قلب سليم، ليست فيه تضخم، لكنه قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي حاضر، وهذه الآية قسم القلوب كما قال ابن القيم في منزلة الإنابة والتذكر إلى ثلاثة أقسام: قلب ميت، هذا لن يستفيد، وقلب حاضر ولكنه غير مستعد، القلب حي طاعات يحب الخير ويحب عمل الخير لكن او القى السمع وهو شنو؟ يكون مستعد قال ما مستعد للموعظة ما بيبقى في الموعظة، لاحظتها؟ والقلب الثالث القلب الحي. ابن القيم عشان يقرب المثال قال شنو؟ قال: وذلك في الأمور الحسية مثل، الأول صاحب القلب الميت كان أعمى في الدنيا، والثاني ولكنه لم يحدق بنظره، نظر وهو متشائم، حتى أنه لم يستلم معالمه شيء، يكون عينه شايفة لكن قلبه طالما ما حاضر، والثالث من نظر إلى الشيء مدققًا محدقًا، وكذلك القلب ليستفيد ينبغي أن يحدق وأن يكون مستعد لأن يتقبل التذكرة، ليتذكر، يتذكر من شنو؟ من يخشى، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، الإنابة بتجيب شنو؟ بتجيب التذكر.

طيب، حاول ابن القيم رحمه الله تعالى أن يناقش أسباب التذكر، يا إخواننا كيف نتذكر؟ طيب أنت كيف تتذكر؟ أمر الآخرة، وتتنبه لهذه المعاني التي تحدث عنها ابن القيم رحمه الله، أول شيء التذكر يبدأ بالموعظة، التذكر يبدأ شنو؟ الموعظة، والموعظة إما مسموعة، إما مشهودة، والموعظة مهمة يا إخوانا، وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فالموعظة مهمة.

الانتفاع بالعظة، والتغاضي عن عيوب الواعظ عشان تنتفع، لكن قد يكون زول فعلا عنده علم ممكن يستفاد منه، تعمل شنو؟ ما تحط عيوبه في بالك، استمع له باعتبارك تريد النجاة لنفسك، ودي فائدة مهمة جدًا في الانتفاع، لينتفع الإنسان بهذه شنو؟ بهذه الموعظة. طيب، عدم ذكر عيب الواعظ، وإن كان ابن القيم رحمه الله يحاول أن يقول شيء، على الواعظ أن يقلل من العيوب، حتى يستفاد منه، يعني زي ما نحن بننصح الزول اللي يستبعد الواحد أنه يتغاضى عن شنو؟ عيوب الواعظ، أيضًا نأمر الواعظ أنه شنو؟ أصلًا ما يعمل عيوب عشان ما يصد الناس، الدكاترة الناس عارفين التدخين وأضراره، والأكيد تلقى طفايته في الترابيزة، وبيدخن، لكن ده ما يمنعك أنك أنت تتداوى، عنده تستفيد من عنده، أيوة حتى لو فيه مرض متعلق بالتدخين، قد يكون متخصص في الصدرية لكن بيدخن، فيه شيء يمكن أن تستفيد شنو؟ منه، ولكنه قد يصدك، لأنه ياخذ الدين ممن يثق شنو؟ يريد أن يأخذ الدين ممن يثق به، يا إخوانا، يكون بينك وبين من يعلمك حواجز، ما حتستفيد منه، وابن القيم هنا يتكلم مع الواعظ أن لا يحرم الناس منه. قال شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾، يعني ماذا؟ أقول لكم: ما تعملوا كده وتلقوني أول زول، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وكذلك القرآن: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ولذلك يوم القيامة في البخاري يرى بعض من كان معلما له موعظة في نار جهنم قد تدلت، اندلقت، يعني تدلت أقتابه مصارينه وقعت، يدور حولها كما يدور الحمار حول الرحى، يا فلان أولم تكن تنهانا عن المنكر؟ أولم تكن تأمرنا بالمعروف؟ يقول: كنت أنهاكم عن المنكر وآتيه، آمركم بالمعروف ولا آتيه.

يا أيها الرجل المعلم غيره، هل لا لنفسك كان ذا التعليم؟ تصف الدواء للإستقام من الضنى وربما أنت به سقيم، لا تنهى عنه وتأتي وتأتي بمثله عار عليك إذا فعلت عظيم، فابدأ بنفسك وانه عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم، وهناك يقبل ما تقول ويكتب بالقول منك وينفع التعليم. في اللحظة دي بيستفاد منك، لذلك هذا مهم، هذه الجزئية في الانتفاع الموعظة مهم، لكن نختم بمسألة بسيطة إن شاء الله، ونستقبل الدرس القادم إن شاء الله منزلة جديدة من منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

طيب أيها الأحبة، تكلمنا وتحدثنا عن أنواع شنو؟ القلوب، ومثال ذلك من الناس إما أعمى وإما بصير، مشغول بقلبه وباله وفكره، وإما بسيط محدق ببصره، متابع بقلبه، صح؟ طيب، تكلم ابن القيم كلام عجيب في هذه النقطة، يتكلم عن تطبيق هذه الأمثلة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وما يعجبني في ابن القيم

أنه بالصديق معجب، يعني بيحب أبو بكر الصديق ده حب، يتكلم عن حياة القلب إلى درجة الإنابة والإحساس بالآخرة، في جزئية تقول فيها شنو؟ يقول ابن القيم: ما زال أهل العلم يعودون بالتفكر إلى التذكر، يعني تفكر أحدهم يتذكره، ويعودون بالتذكر إلى التفكر، يرجعوا بالتذكر عم يتذكر يدري شنو؟ الشيء يتذكر من جديد، وبالتذكر إلى التفكر حتى أنطقوا القلوب فنطقت.

فكم ضرب مثال؟ قال: مثل أبي بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لرجل أخذ أخاه إلى مكان، ووقفوا أمام قصر مشيد جميل، قال: وقف أحدهما بالخارج، ودخل الثاني، الثاني رأى ولمس، ووقف على تفاصيل أجزاء البناء من الداخل، قال ليهم: أنا شفته أشياء كتيرة، في ناس ما صدقوا زي دي، لكن دا صدق ليه؟ لأنه دا وصل لدرجة قريبة منه، ما دخل لكن شاف اللي برا، عرف أنه أي حاجة جواه ممكن تكون، لأنه يعني البيت فخم جدًا. الذي دخل هو الرسول عليه الصلاة والسلام، والذي وقف بالخارج هو وأبو بكر الصديق، لمن جه كلمه، الناس التانيين، الاتنين دول مشوا كلموهم، ناس ساكنين في حلة بعيدة في قصر كبير فيهم كده وكده، في ناس تصدقوا وفي ناس اتشككوا، لكن أبو بكر دون ما تشكك أصلًا، ليه؟ لأنه صديق، الصديق نطق بالقلب، فكان لقلبه سمعا وبصرا، يعني شاف لكن ما شاف تفاصيله.

عشان كذا هي المنزلة التالية لمنزلة النبوة: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾، بعدك بيجوا شهداء، دائما بعد النبي والصحابة الصديقين، لكن ما يوجد مثل الصديق لأنه صار اسما له، الفاروق وذي النورين والكرار، ولكن هذا الصديق، والفرق شنو يا إخوان؟ واضح، الصديق رضي الله عنه، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام لما، في صحيح مسلم، كان على ظهر أحد، فاهتز جبل أحد فقال: اثبت أحد، كان معه أبو بكر وعمر وعثمان، فإن عليك نبي وصديق وشهيدان، وفيها علم من أعلام النبوة أن عثمان وعمر لن يموتا حتف أنفهما في سرير بن ملال ولا حمى، سيموتا مقتولين وهما يقتلان ظلما، فلذلك أثبت لهم الشهادة، اثبت أحد فإن عليك نبي وصديق وشهيدان، والصديق منزلة من منازل الدين.

فلذلك إنطاق القلوب بالتذكر والتفكر إلى الوصول إلى درجة الإنابة مسألة من المسائل المهمة جدًا، الأفضل أن نكتفي بهذا القدر، ولكن أقول أخيرًا أيها الأحبة وأيها الكرام: إن التذكر لا يقاد إليه كل الناس، لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾.

للاستماع إلى المادة وتنزيلها

mohamedsayed.com/halqa/11/شروح-الكتب/شرح-كتاب-مدارج-السالكين

تابع الحسابات الرسمية للشيخ

فيسبوك
MohammedSayedHaj

يوتيوب
@msayedhaj

تيليجرام
@msahaj

قناة واتساب
قناة الشيخ

إكس
@mohamedsayed_sd

الموقع الرسمي للشيخ محمد سيد حاج رحمه الله · mohamedsayed.com